

التعليل عند الخليل وسيبويه حقيقته والجديد فيه

محمد ابراهيم خليفة الشوشتري
كلية الآداب - قسم اللغة العربية
جامعة الشهيد بهشتي - طهران

لا شك أن السؤال عن السبب. وتتبع العلة من طبيعة الانسان المتعلم. ولا شك أن بيان العلة وسيلة تعليمية هامة تعين على الفهم. وتساعد على الادراك. ولا شك - أيضاً - أن العالم الذي يتصدى لدراسة اللغة، ورصد أساليبها المختلفة، ولهجاتها المتنوعة، واستقراء ما تشابهه. وما اتفق منها على أمر أو حكم، وجمعه ووضع في اطار وقاعدة، تفرض عليه وظيفته أن يكون عمله الوصفي مصحوباً بالتفسير والتعليل والتحليل ولا يجوز له أن يقف متفرجاً مكتوف الأيدي أمام الظواهر اللغوية المختلفة، والأساليب الكلامية المتنوعة مكتفياً بالوصف بلا تحليل وتعليل: لأنه قد ثبت عنده بالدليل القاطع أن الحكمة متفشية ومنتشرة في جميع أساليب هذه اللغة، بحيث تقف وراء كل تغيير يحصل فيها.

الصادق أو البراهين الواضحة والحجج اللائحة، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها: انما فعل هذا هكذا لعله كذا وكذا. ولسبب كذا وكذا، سنحت له، وخطرت بباله. محتملة لذلك. فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة، إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك. فان سنح لغيري علة لما علته من النحو هو أليق مما ذكرته

إن الخليل بن أحمد الفراهيدي لما سئل عن العلل التي يعتل بها في النحو قال: «ان العرب نطقت على سجيبتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وان لم ينقل ذلك عنها، واعتلت أنا بما عندي أنه علة لما علته منه. فان أكن أصبت العلة فهو الذي التمسست. وان تكن هناك علة له فمتلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء، عجيبة النظم والأقسام. وقد صحت عنده حكمة بانيتها. بالخبر

بالمعلول فليات بها»^(١).

فاذا كان التعليل وسيلة من وسائل التعليم يساعد على سرعة الفهم والاستيعاب ببيان علة العكس فان العالم في انتخاب العلل المناسبة إنما يعكس مدى نجاحه في عمله.

والحق أن الخليل وسيبويه قد أديا ما عليهما من الوصف و التحليل المدعم بالتعليل أداء كاملاً ولم يدخرا جهداً في هذا المجال. فجاء عملهما في الكتاب ناجحاً كل النجاح؛ إذ لم يواجها ظاهرة لغوية - مطردة كانت أم غير مطردة - إلا وسعاها تفسيراً وتحليلاً وتعليلاً. ولقد تركا لنا ثروة علمية ضخمة، وجهوداً عقلية ذكية لا غنى للدارس عنها، تستحق التقدير والاحترام. وهما إن يحكيان ويمثلان جهود من سبقهما مضافاً إليها ما بذلاه من جهود علمية أثريا بها الثقافة الاسلامية العربية.

والمهم أن كتاب سيبويه مليء بتعليل الظواهر اللغوية والنحوية والصرفية وغيرها. وتتصف هذه التعليقات - كما سنرى ذلك في الأمثلة التي سنوردها - بأنها مستنبطة من الاستعمالات اللغوية والأدبية، وغير خارجة عن أجواء اللغة العربية وطبيعة أربابها. فهي - في مجموعها - تستند الى الحس اللغوي، والطبع العربي، وبعيدة كل البعد عن الأساليب المنطقية وتعليلاتها، ولا تمت اليها والى كل ما هو مخالف لطبيعة اللغة العربية، بأدنى صلة.

يدلك على ذلك أن سيبويه كان يعتمد في تعليلاته على أسس معينة مستوحاة من طبيعة اللغة، وعرف أربابها. وأن أهم هذه الأسس، وأبرزها المشابهة الموجودة بين الأساليب اللغوية المختلفة؛ فسيبويه يجمع الأساليب المتشابهة بعضها الى بعض، ويحمل بعضها على بعض، ويوضح النظير بذكر نظيره. فأكثر تعليلاته قائمة على التشبيه، ومعلوم أن أكثر الكلام العربي قائم على التشبيه؛ قال المبرد: «والتشبيه جارٍ،

كثير في كلام العرب، حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يُعَد»^(٢).

وتعليلات الخليل وسيبويه مأخوذة من التشبيه الذي يربط فيه الأديب أو الشاعر العربي بوجه شبيهي يعتقد وجوده بين شيئين. وإن لم يكونا متشابهين من جميع الوجوه. فنجد الشاعر يكتفي بوجه شبيهي واحد يتخذه رابطاً وجامعاً يُقَرَّبُ بين شيئين ليُبين أحدهما بالآخر، أو قل: ليبين المشبه بالمشبه به؛ فقد شبه الشعراء الانسان بالحيوان، وقالوا: (محمد كالأسد)، حينما وجدوه متصفاً بالشجاعة التي هي في الأسد أقوى وأظهر، فبيّنوا اتصاف محمد بالشجاعة بحمله على الأسد، وتشبيهه به، وإن لم يُشبهه من كل وجه. وكذلك شبهوا الانسان بالجماد، فقالوا: (علي كالبحر) لما رأوه اتصف بما هو أصل عرفاً في البحر، وهو الكرم، فبيّنوا اتصاف علي بالكرم بحمله على البحر، وتشبيهه به، وإن اختلف عنه في بقية الصفات، وكذلك قالوا: (حسين كالقمر). فهذا حال التشبيه في اللغة العربية.

والمهم أن سيبويه استخدم هذا التشبيه في أغلب تعليلاته مقتدياً بالعرب، ومذاهبها في الاستعمالات اللغوية حرصاً منه على عدم الخروج باللغة العربية عن مذاهب أربابها، وعمّا تعارفوا عليه فيها. وهو في ذلك إنما يحكي منهج أساتذته وسلفه من علماء النحو، وهو منهج صائب وموفق.

قال ابن جني مصرحاً بهذا: «قالوا للناقة: (جُماليّة)؛ لأنهم شبهوها بالجمال في شدته، وعلو خلقه وهو كثير. فلما شاع ذلك واطرد صار كأنه أصل في بابها، حتى عادوا فشبهوا الجمال بالناقة في ذلك وهذا المعنى عينه قد استعمله النحويون في صناعتهم؛ فشبهوا الاصل بالفرع في المعنى الذي أفاده ذلك الفرع من ذلك الأصل: ألا ترى أن سيبويه أجاز في قولك: (هذا الحسن الوجه) أن يكون الجر في الوجه من موضعين،

مما علل به القوم وجوه الاعراب إلا والنفس تقبله،
والحس منطو على الاعتراف به فجميع علل النحو -
إذن - مواطنة للطباع^(٦). وهذا ما سنراه في الأمثلة التي
سنوردها بعد قليل.

هذا النص صريح في أن تعليل الخليل وسيبويه
متناسب مع الحس العربي، ومتلائم مع الطبع اللغوي
الأصيل بعيداً عن كل ما هو هجين، أو غريب عن الطبع
العربي.

والمهم أن أهم الأسس التي قامت عليها تعليقات
سيبويه والخليل هي:

١ - التشبيه.

٢ - ثقل الحال وخفتها على النفس.

٣ - طبيعة العربي. وحسه اللغوي وذوقه.

٤ - دلالة الحال. وعلم المخاطب.

٥ - طبيعة الأساليب اللغوية في صورها المختلفة.

٦ - البيان وعدم اللبس.

وفيما يلي أمثلة لتعليلات سيبويه لتؤكد من صحة
ما قلناه:

أولاً: التعليل بالتشبيه:

أمثلة ذلك:

المثال الأول: تعليل اعراب الفعل المضارع:

الشرح: لما وجد النحاة الفعل المضارع قد خالف
قانون الأفعال القاضي بالبناء، فجاء معرباً خارجاً عن
الأصل في الأفعال، لما رأوا ذلك أرادوا أن يذكروا علتها،
لذلك عللوا هذه الظاهرة بما اطرده في الاستعمال الأدبي
شعراً ونثراً. أعني بذلك التشبيه؛ فعقدوا مشابهة بين
الفعل المضارع، واسم الفاعل، ودعموا هذه المشابهة
بدليل علمي، وهو وجه الشبه الجامع، فقالوا: ان الفعل
المضارع يشبه اسم الفاعل، ووجه الشبه الجامع بينهما
قوي لأنه يتألف من عدة أوجه، أهمها ما يلي:

١ - اشتغال كل منهما على عدد معين واحد من

أحدهما: الاضافة، والآخر تشبيهه (بالضارب الرجل)
الذي انما جاز فيه الجر تشبيهاً له (بالحسن الوجه)؛
فان قيل: وما الذي سَوَّغ سيبويه هذا، وليس مما يرويه
عن العرب رواية، وانما هو شيء رآه، واعتقده لنفسه،
وعلل به؟

قيل: يدل على صحة ما رآه من هذا، وذهب اليه ما
عرفه، وعرفناه معه: من أن العرب إذا شَبِهت شيئاً
بشيء مكنت ذلك الشبه لهما، وعمرت به الحال بينهما ...
فاعرف - إذن - ما نحن عليه للعرب مذهباً، ولمن شرح
لغاتنا مضطرباً، وأن سيبويه لاحقٌ بهم، وغير بعيد فيه
عنهم^(٣).

ان نص ابن جني هذا صريح في أن سيبويه في
تعليلاته لاحق بالعرب، لا باليونان، وتابع للعرب لا
للمناطق والفلاسفة: لأنه لا يريد أن يُبعد اللغة عن عرف
أربابها طبيعة حالها، ولا يريد أن يُدخل فيها ما هو
غريب عنها، وليس منها، وهذا - فيما أرى - هو سر
نجاحه في وصفه، وتحليله للغة، وأساليبها المختلفة،
ولهجاتها المتنوعة.

ولقد صرح سيبويه في مواطن كثيرة من كتابه بأن
التشبيه، وحمل النظر على نظيره منهج اتخذ العرب،
واعتمدوه في لغتهم، لذلك جاز للنحاة أن يعللوا به أينما
وجدوه. وأن هذا التشبيه لا يشترط فيه التشابه
والتماثل من جميع الجهات بل يكفي وجود وجه شبهي
جامع معتبر كما هو الحال في التشبيه الأدبي:

قال سيبويه: «فمن كلامهم أن يشبهوا الشيء
بالشيء، وإن كان ليس مثله في جميع الأشياء»^(٤).

ثم ان نص الخليل الذي ذكرناه قبل قليل، صريح في
أن تعليقات علماء النحو ليست قطعية. ولا هي حدية
صارمة. بل ان العالم حُرٌّ في أن يعلل بما يراه مناسباً.

والمهم أن المحققين من علماء النحو حينما يعللون
«انما يحيلون على الحس، ويحتجون فيه بثقل الحال، أو
خفتها على النفس»^(٥). وقال ابن جني: «ولست تجد شيئاً

الحروف؛ لأن عدد حروف الفعل المضارع - مجرداً كان أم مزيداً - يساوي عدد حروف اسم الفاعل المأخوذ. نحو: (يكتب)، و(كاتب)، و(يستخرج)، و(مستخرج).
٢ - توافق حروف كل منهما في الحركات والسكنات، نحو: (يكتب)، و(كاتب)، و(يستنبط) و(مُستنبط).
٣ - دخول لام الابتداء على كل منهما نحو: (ان محمداً لصادق) و(ان محمداً ليصدق).
فقوة هذه المشابهة تكمن في أنها لفظية واستعملية. والمهم أن هذه المشابهة قرّبت الفعل المضارع من الاسم الذي هو معرب في الأصل. وأخرجته من البناء الى الاعراب. لذلك صارت المشابهة علة اعراب الفعل المضارع.

فالتحاة بعملهم هذا قد بيتوا اعراب الفعل المضارع بحمله على الاسم وتشبيهه به. كما بين الأدباء اتصاف محمد بالكرم في قولهم: (محمداً كالبحر) بحمله على البحر وتشبيهه به.

المثال الثاني: تعليل عمل اسم الفاعل:

الشرح: لما وجد سيبويه والتحاة اسم الفاعل يعمل النصب، مع أن العمل في الأصل للأفعال لا للأسماء، عللوا هذه الظاهرة النحوية بالمشابهة الموجودة بين اسم الفاعل والفعل المضارع، لذلك كانت هذه المشابهة هي علة اعراب الفعل المضارع، وهي نفسها علة عمل اسم الفاعل. فهم بذلك قد صادوا عصفورين بحجر واحد غير خارجين عن الأجواء اللغوية فكما أعرب الفعل المضارع لتشبهه بالاسم وقربه منه، عمل اسم الفاعل لتشبهه بالفعل المضارع وقربه منه.

فهل رأيت تعليلاً أسلم وأصل من هذا؟ وهل سمعت بتعليل أقرب الى اللغة العربية وآدابها من هذا؟ واستمع - الآن - الى تعليل سيبويه لهاتين الظاهرتين: أعني اعراب المضارع، واعمال اسم الفاعل قال سيبويه معللاً عمل اسم الفاعل، واعراب الفعل

وقال ابن جني شارحاً نص سيبويه المتقدم: «فان قيل: وما الذي سوغ سيبويه هذا، وليس مما يرويه عن العرب رواية، وانما هو شيء رآه، واعتقده لنفسه، وعلل به؟ قيل: يدل على صحة ما رآه من هذا، وذهب اليه، ما عرفه، وعرفناه معه، من أن العرب اذا شَبِهَتْ شيئاً بشيء مكنت ذلك الشبه لهما، وعمرت به الحال بينهما؛ ألا تراه لما شَبِهُوا الفعل المضارع بالاسم فأعربوه، تَمَمُوا ذلك المعنى بينهما بأن شَبِهُوا اسم الفاعل بالفعل، فأعملوه»^(١٢).

واضح أن ابن جني قد أوضح في نصه هذا أن سيبويه قد قلّد أرباب اللغة في تعليل ظواهر لغتهم. على أن تعليله المتقدم هذا قد يبدو مخالفاً للمنطق.

المثال الثالث: نحن نعلم أن التحاة ذهبوا الى أن الحرف لا يعمل إلا اذا كان مختصاً بالاسم أو كان مختصاً بالفعل. فان لم يكن مختصاً لم يكن عاملاً. هذا هو قياس عمل الحروف، وعدم عملها. واستناداً الى هذا القياس كانت (ما) غير عاملة؛ لأنها تدخل على الأفعال، نحو قولك: (ما جاء أبوك). وتدخل - أيضاً - على

الأسماء. نحو قولك: (ما محمدٌ بشاعر)، فهي - اذن - غير مختصة، لذلك لا تعمل.

وبنو تميم ماضون على هذا القياس، لا يعملون (ما) النافية، فهي عندهم مهملة. لكن الحجازيين أعملوها خلافاً لهذا القياس الذي اعتمدته التميميون. وقد ورد اعمالها في القرآن الكريم موافقاً للغة الحجازيين، قال تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾^(١٣)، وقال عز وجل: ﴿مَا هُنَّ أُمّهَاتِهِمْ﴾^(١٤) لذلك وجد النحاة أنفسهم أمام ظاهرة لغوية يجب وصفها، وتعليلها، وتوجيهها، وتفسيرها، لذلك تصدى سيبويه لانجاز هذا العمل العلمي الخطير مستعيناً بأستاذه الخليل: فقال: «هذا باب ما أُجرى مجرى (ليس) في بعض المواضع بلغة أهل الحجاز، ثم يصير الى أصله: وذلك الحرف (ما)؛ تقول: (ما عبد الله أخاك)، و(ما زيدٌ منطلقاً). وأما بنو تميم، فيجرونها مجرى (أما)، و(هل)؛ أي: لا يعملونها في شيء، وهو القياس؛ لأنه ليس بفعل، وليس (ما) كـ (ليس)، ولا يكون فيها اضممار. وأما أهل الحجاز، فيشبهونها بـ (ليس)؛ إذ كان معناها كمعناها»^(١٥). واضح أن علة عمل (ما) شبهها بـ (ليس) في المعنى، وهذا الشبه هو علة إلحاقها بـ (ليس) في العمل. وهكذا رأينا أن التعليل النحوي انما تمّ بالتشبيه، والتشبيه - كما علمنا - ظاهرة أدبية شائعة في اللغة العربية، وركن من أركان الخيال الأدبي. وهو - هنا - ركن من أركان الدرس النحوي، مع وجود الفارق بين التشبيهين؛ لأن الأول أدبي، والثاني علمي.

المثال الرابع: لما رأى النحاة أساليب فصيحة أهملت فيها (ليس). فخرجت عن أصلها ولم تعمل. وجدوا أنفسهم أمام ظاهرة لغوية لا بُد لهم من تفسيرها بالتعليل. لذلك لجأوا - كعادتهم - الى التشبيه وذهبوا الى أن علة عدم اعمال (ليس) في نحو قولهم: (ليس خلق الله أشعر منه) انما هي مشابهتها لـ (ما) النافية في المعنى؛ فالمشابهة الموجودة بين (ليس) و(ما) هي علة عمل (ما)، وهي نفسها علة عدم عمل (ليس).

أرأيت تعليلاً أسلم من هذه التعليلات؟ وهل سمعت بتفسير أكثر أصالة من هذه التفسيرات؟ قال سيبويه معللاً اهمال (ليس) بمشابهتها لـ (ما): «وقد زعم بعضهم أن (ليس) تجعل كـ (ما)، وذلك قليل لا يكاد يعرف. فهذا يجوز أن يكون منه: (ليس خلق الله أشعر منه)، و(ليس قالها زيدٌ) ... هذا كله سمع من العرب»^(١٦).

فهل رأيت تعليلاً يدعم السماع ويخدمه كهذا التعليل؟ المثال الخامس: حينما سمع سيبويه بعض العرب الفصحاء يقولون: (هذا جُحْرٌ ضَبٌّ خَرْبٍ)، فيجرون الخرب، وهو صفة الجحر، مخالفين المطرد من الكلام الذي يوجب رفع الخرب في هذا الأسلوب: (هذا جُحْرٌ ضَبٌّ خَرْبٍ)؛ لأنه صفة للجحر لا للضب، حينما سمع سيبويه ذلك وجد نفسه أمام ظاهرة لغوية فصيحة جديدة بالدرس والتفسير والتعليل لمجيئها مخالفة للمطرد من السماع، لذلك استعان سيبويه بأستاذه الخليل على تعليل هذه الظاهرة. وكانت النتيجة ما يلي:

تعليل الخليل وسيبويه لظاهرة الحمل على الجوار في قول العرب: (هذا جُحْرٌ ضَبٌّ خَرْبٍ):

لقد لجأ الخليل وسيبويه في تعليل هذه الظاهرة الى التشبيه: فشبهوا التركيب الوصفي بالتركيب الاضافي. ووجه الشبه الذي اعتبراه في هذا التشبيه معنوي، وهو أن كلاهما يدل على معنى التخصيص. وأن كلاهما بمعنى شيء واحد. وان تركب من كلمتين؛ فالمضاف والمضاف اليه يدلان بمجموعهما على شيء واحد. مع أنهما لفظان نحو: (عبد الله)، و(قلم المعلم): فعبد الله شخص واحد. وقلم المعلم شيء واحد أيضاً. وكذلك الصفة والموصوف يدلان بمجموعهما على شيء واحد نحو: (رجل عالم) و(قلم جديد). فهذا الشبه الموجود بين هذين التركيبين يقرب بينهما الى حد يمكن فيه أن يأخذا حكماً مشتركاً. فيعطى أحدهما الحكم الذي أعطيه الآخر. فتعليل الخليل وسيبويه لظاهرة الحمل على الجوار

للضَبِّ، ولكنه نعتٌ للذي أضيف الى الضب، فجروه لأنه نكرة كالضب، ولأنه في موضع يقع فيه نعت الضب. ولأنه صار هو والضب بمنزلة اسم واحد. ألا ترى أنك تقول: (هذا حبُّ رمانٍ). فإذا كان لك قلت: (هذا حبُّ رمانٍ)، فأضفت الرمان اليك، وليس لك الرمان. إنما لك الحب ... فكذلك يقع على (جُحْرُ ضَبٍّ) ما يقع على (حبِّ رمانٍ)، تقول: (هذا جُحْرُ ضَبٍّ)، وليس لك الضبِّ، إنما لك (جُحْرُ ضَبٍّ)، فلم يمنعك ذلك من أن قلت: (جُحْرُ ضَبٍّ)، والجُحْرُ والضبُّ بمنزلة اسم مفرد، فأنجر الخربُ على الضبِّ، كما أضفت الجُحْرَ اليك مع إضافة الضبِّ»^(١٧).

المثال السادس: تعليل تصغير فعل التعجب:

معلوم أن التصغير من صفات الأسماء وخصائصها؛ لأنه صفة في الأصل؛ فقولك: (رجيل) معناه: (رجلٌ حقير) أو (رجلٌ صغير)، ولا شك أنه لا يوصف غير الاسم. لذلك لما سمع سيبويه تصغير فعل التعجب، سأل أستاذه الخليل عن علة وجود هذه الظاهرة اللغوية النحوية التي جاءت مخالفة للمطرود من الكلام العربي، فكان التعليل الآتي:

تعليل الخليل وسيبويه لظاهرة تصغير فعل التعجب:

لقد علل الخليل، ووافقه سيبويه في نصه الآتي، تصغير فعل التعجب بمشابهته لقول العرب: (يَطْؤُهُمُ الطريقُ)، و(صَيِّدٌ عليه يومان). ووجه الشبه - فيما أرى - استعماله، وهو استعمال لفظ وإرادة لفظ آخر، بحيث ينوب اللفظ الموجود المستعمل عن اللفظ المقصود، والقرينة معنوية. فاللفظ المستعمل غير مراد، وإنما المراد لفظ آخر.

قال سيبويه: «وسألت الخليل عن قول العرب: (ما أَمِيلِحَةُ)، فقال: لم يكن ينبغي أن يكون في القياس؛ لأن الفعل لا يحقر، وإنما تحقر الأسماء؛ لأنها توصف بما يعظم، ويهون، والأفعال لا توصف، فكروها أن تكون

مبني على هذا التشبيه؛ فقد ذهبوا إلى أنه كما جاز لشخص، يملك حب رمان، ولا يملك الرمان، أن يضيف الرمان إلى نفسه، فيقول: (هذا حبُّ رمانٍ): لأن المضاف والمضاف إليه كالثشيء الواحد، كذلك جاز له أن يصف المضاف إليه بما هو صفة للمضاف. وأن يجعل هذه الصفة ذات الموصوفين، تابعة في الاعراب للمضاف إليه. فيقول: (هذا جُحْرُ ضَبٍّ خربٍ)؛ لأن المضاف والمضاف إليه كالثشيء الواحد. وكما جاز لشخص، يملك جحر ضب، ولا يملك الضب، أن يضيف الضب إلى نفسه، فيقول: (هذا جُحْرُ ضَبٍّ)؛ لأن المضاف والمضاف إليه كالثشيء الواحد، كذلك جاز له أن يصف المضاف إليه بما هو صفة للمضاف. وأن يعطيها اعراب المضاف إليه، فيقول: (هذا جُحْرُ ضَبٍّ خربٍ).

فكما جاز لك في نحو: (هذا جُحْرُ ضَبٍّ)، و(هذا حبُّ رمانٍ)، أن تضيف ما ليس لك اليك لوجود العلاقة الإضافية بين الذي لك والذي ليس لك، كذلك جاز لك - أيضاً - أن تصف بصفة غير موصوفها الحقيقي، أي: جاز لك أن تصف المضاف إليه بما هو صفة للمضاف لوجود العلاقة الإضافية بين الموصوفين.

فكما جاز وصح ذلك في التركيب الإضافي. كذلك جاز وصح في التركيب الوصفي لوجود العلاقة الإضافية في كل منهما الجامعة بين التركيبين المتشابهين. والمهم أن علة جواز قولهم: (هذا جُحْرُ ضَبٍّ خربٍ) هي شبهة بقولهم: (هذا جُحْرُ ضَبٍّ).

ولكي تتأكد من هذا الشرح الذي قدمته اقرأ نص سيبويه التالي بهذا الخصوص.

قال سيبويه واصفاً ظاهرة الحمل على الجوار ومعللاً إياها: «ومما جرى نعتاً على غير وجه الكلام: (هذا جُحْرُ ضَبٍّ خربٍ)، فالوجه الرفع، وهو كلام أكثر العرب وأفصحهم. وهو القياس؛ لأن الخرب نعتُ الجحر والجُحْرُ رفعٌ، ولكن بعض العرب يَجْزُهُ. وليس بنعت

الفاعل أهلاً وأقاموا الطريق مقامه.

وكذلك الأمر بالنسبة لقول العرب: (صَيْدٌ عَلَيْهِ يَوْمَانِ)؛ لأنهم حينما رفعوا اليومين - وهو ظرف مجرور بـ (في) - نائباً عن الفاعل. لم يقصدوا هذا اللفظ لنفسه. بل انهم قصدوا النائب عن الفاعل الذي هو (الصيّد)، أو (الوحش)؛ لأن تقدير الجملة هو: (صَيْدٌ عَلَيْهِ الصَيْدُ فِي يَوْمَيْنِ).

ومثل «ذلك أن تقول: (كَمْ وُلِدَ لَهُ؟)، فيقول: (ستون عاماً). فالمعنى: (وُلِدَ لَهُ الأولادُ، وَوُلِدَ لَهُ الولدُ ستين عاماً، ولكنه اتسع، وأوجز»^(٢٠).

ثانياً: التعليل بطلب الخفة:

أمثلة ذلك:

المثال الأول: تعليل حذف الحركة بالاستخفاف:

قال سيبويه: «هذا باب ما يسكن استخفافاً، وهو في الأصل متحرك: وذلك قولهم في (فَخَذِ): (فَخَذُ)، وفي (كَبِدِ): (كَبِدُ)، وفي (عَضِدِ): (عَضِدُ)، وفي (الرَّجُلِ): (رَجُلُ)، وفي (كُرَمَ الرَّجُلِ)، (كُرَمُ)، وفي (عَلِمَ): (عَلَمُ)، وهي لغة بكر بن وائل، وأناس كثير من بني تميم. وقالوا في مَثَلٍ: (لَمْ يُحَرِّمَ مَنْ قُصِدَ لَهُ).... وانما حملهم على هذا أنهم كرهوا أن يرفعوا ألسنتهم عن المفتوح إلى المكسور، والمفتوح أخف عليهم، فكرهوا أن ينتقلوا من الأخف إلى الأثقل»^(٢١).

فسيبويه علل هذه الظاهرة اللغوية الفصيحة بالطبع العربي المبنتي على طلب الخفة، والانتقال من الأثقل إلى الأخف.

المثال الثاني: تعليل حذف التنوين

من اسم الفاعل العامل بالاستخفاف:

قال سيبويه معللاً حذف التنوين من اسم الفاعل العامل تمهيداً لضافته إلى معموله، بالاستخفاف. فقال: «ومما يكون مضافاً، ويكون نعتاً للكرة الأسماء التي

الأفعال كالأسماء لمخالفتها إياها في أشياء كثيرة، ولكنهم حقروا هذا اللفظ، وانما يعنون الذي تصفه بالملح. كأنك قلت: (مُلِيحٌ)، شَبَّهُوهُ بالشَّيء الذي تلفظ به، وأنت تعني شيئاً آخر، نحو قولك: (يَطْوُهُمُ الطريقُ)، و(صَيْدٌ عَلَيْهِ يَوْمَانِ). ونحو هذا كثير في الكلام»^(١٨).

شرح هذا التعليل: لقد ذهب الخليل إلى أن العرب حين صغروا فعل التعجب لم يقصدوا تصغير هذا الفعل، انما قصدوا تصغير الموصوف. فهم لم يُقَدِّمُوا على تصغير فعل التعجب إلا بهذا القصد، إذ ليس قصدهم تصغير الفعل لأجل الفعل نفسه؛ يعني: ليس قصدهم تصغير الفعل لأجل أن يصفوا الفعل؛ لأنه محال أن يوصف الفعل. بل انما صغروا الفعل ليتوصلوا إلى تصغير الموصوف، ووصفه بصفة كالملاحه مثلاً. فكأن الفعل هنا ناب عن الاسم في التصغير، لأن الاسم هو المقصود بصفة التصغير. والتصغير - كما نعلم - أمر معنوي وصفي، يكون تغيير بناء اللفظ وصيغته دليلاً عليه، يعني: انما يُتَوَصَّلُ إليه باللفظ.

والمهم أن ظاهر اللفظ (الفعل) مصغر، لكن المقصود بمعنى التصغير لفظ آخر، هو الموصوف بالملاحه والحسن، وهو الاسم. فالعرب صغروا الفعل لكنهم لم يقصدوا وصف الفعل. انما قصدوا وصف الاسم؛ لأنهم علموا علم اليقين أنه لا يوصف الاسم.

وهذا هو وجه الشبه الجامع بين تصغيرهم فعل التعجب، وقولهم: (يَطْوُهُمُ الطريقُ)^(١٩)، و(صَيْدٌ عَلَيْهِ يَوْمَانِ)؛ فالعرب بقولهم: (يَطْوُهُمُ الطريقُ) قد تلفظوا بالطريق فاعلاً للفعل (يَطْوُهُمُ)، هذا هو ظاهر الأمر. لكنهم في الواقع لم يتلفظوا بهذه الكلمة (الطريق) إلا وهم يقصدون الفاعل الحقيقي الذي هو (أهل)، فظاهر الأمر أن الطريق هو الفاعل؛ لأنه مرفوع بالفعل (يَطْوُهُمُ)، ولا يوجد فاعل غيره في الجملة. لكنه - كما هو واضح - ليس مقصوداً بالفاعلية، وانما المقصود بالفاعلية انما هو (أهل)، لأن التقدير هو: (يَطْوُهُمُ أَهْلُ الطريقِ)، فحذفوا

ولا شتيمَةً حر)، أي: (أنت كل شيء، ولا ترتكب شتيمة حر)، فحذف لكثرة استعمالهم إياه»^(٢٥).

رابعاً: التعليل بالتوهم:

إن التوهم اصطلاح نحوي أصولي مهم، ومعناه التصور، وهو نوع من أنواع الحمل على المعنى. قال سيبويه ناقلاً تعليل الخليل بالتوهم: «وسألت الخليل عن قوله عز وجل: ﴿فَأُصِدِّقَ وَأُكَّنَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾»^(٢٦). فقال: هذا كقول زهير: بدا لي أنني لست مُدرك ما مضى ولا سابق شيئاً إذا كان جائياً^(٢٧).

فانما جروا هذا، لأن الأول قد يدخله الباء، فجاءوا بالثاني. وكأنهم قد أثبتوا في الأول الباء، فكذلك هذا لما كان الفعل الذي قبله قد يكون جزماً ولا فاء فيه تكلموا بالثاني، وكأنهم قد جزموا قبله، فعلى هذا توهموا هذا»^(٢٨).

شرح هذا التعليل: لقد اشتمل نص سيبويه على مسألتين عليهما الخليل بعلة واحدة، هي التوهم، وإن اختلف نوع التوهم فيهما؛ والمسألتان هما:

المسألة الأولى: عطف فعل مجزوم على فعل منصوب، وظاهر هذا العطف مخالف للقياس لذلك سأل سيبويه أستاذه الخليل عن العلة التي سوَّغته.

وبيان العلة التي ذكرها الخليل هو أن الفعل المعطوف عليه واقع في جواب (لولا)؛ قال تعالى: ﴿فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأُصِدِّقَ وَأُكَّنَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢٩)، لذلك جاز فيه وجهان هما: الأول: اقترانه بالفاء، ونصبه.

الثاني: حذف الفاء، وجزمه.

فُعطف فعل مجزوم على فعل منصوب إن حذفت منه الفاء انجزم، فعطف فعل مجزوم على فعل تُوهِم جزمه، أو قل: عطف أحد الوجهين الجائزين على الوجه الجائز الآخر، ولك أن تقول: عطف الفعل المجزوم على فعل

أخذت من الفعل، فأريد بها معنى التنوين. من ذلك: (مررتُ برجلٍ ضاربٍك)، فهو نعت على أنه سيضربه، كأنك قلت: (مررتُ برجلٍ ضاربٍ زيداً). ولكن حذف التنوين استخفافاً»^(٣٠).

فعله حذف تنوين (ضارب) - وهو اسم فاعل عامل دال على الحال أو الاستقبال - إنما هي طلب الخفة بالابتعاد عن التنوين الذي استثقلوه، وحذفه تمهيداً لضافته إلى معموله؛ فاضافته إلى معموله ما هي إلا طلب للخفة في اللفظ، فالإضافة لفظية، وليست حقيقية معنوية.

المثال الثالث: تعليل إبقاء الياء في النسب إلى المضاعف: قال سيبويه ذاكراً تعليل الخليل إبقاء الياء في النسب إلى (شديدة): «وسألته عن (شديدة)، فقال: لا أحذف، لاستثقالهم التضعيف، وكأنهم تنكبوا التقاء الدالين»^(٣١) ولم يقولوا: (شَدِيدِي) بحذف الياء في النسب إلى (شديدة)، فقالوا: (شديدي)، وعلة عدم حذف الياء طلب الخفة بالابتعاد عن التضعيف الذي استثقلوه.

ثالثاً: التعليل بكثرة الاستعمال:

إن كثرة الاستعمال اصطلاح يعني كثرة تردد اللفظ في الكلام، ولا شك أن كثرة تردد اللفظ على الألسنة قد يوجد - أحياناً - ثقلاً يوجب حذف شيء من الكلمة على خلاف القياس.

قال سيبويه معللاً حذف الألف من (ها) التي للتنبيه: «تقول: هُلْمْ وهَلْمْ وهَلْمِي وهَلْمُمن. والهاء فَضْلٌ، إنما هي (ها) التي للتنبيه، ولكنهم حذفوا الألف لكثرة استعمالهم هذا في كلامهم»^(٣٢).

وقال معللاً حذف الفعل والفاعل بكثرة استعمال الأسلوب: «ومن ذلك قول العرب: (كليهما وتمراً)، فذا مثل قد كثر في كلامهم، واستعمل، وترك ذكر الفعل إما كان قبل ذلك من الكلام، كأنه قال: (أعطني كليهما وتمراً). ومن ذلك قولهم: (كل شيءٍ ولا هذا) و(كل شيءٍ

مجزوم محلاً منصوب لفظاً.

المسألة الثانية: عطف اسم مجرور على خبر (ليس) المنصوب. وظاهر هذا العطف مخالف للقياس لذلك سأل سيبويه أستاذه الخليل عن العلة التي سوّغته.

وبيان العلة التي ذكرها الخليل هو أن الاسم المعطوف عليه خبر (ليس). وخبر (ليس) - كما نعلم - له استعمالان هما:

الأول: أن يستعمل منصوباً، وهذا هو الأصل.

الثاني: أن يستعمل مجروراً بالباء الزائدة التأكيدية.

فعطف الشاعر أحد الوجهين الجائزين - وهو الجر - على الوجه الجائز الآخر - وهو النصب - فكأنه توهم وتصور وجود الباء في خبر (ليس)، وعطف عليه بالجر، فعطف أحد الأسلوبين على الآخر.

والجدير بالذكر أن بعض الذين لم يفهموا كلام سيبويه اعتقدوا أن الخليل حمل الآية الكريمة على بيت زهير وقاسها به. وكفى بهذا جهلاً.

خامساً: التعليل بالالتباس:

علل الخليل عدم جواز حذف الألف من فعل الاثنين مع نون التأكيد الخفيفة، وجوب حذف نون التأكيد، علل ذلك بأن حذف الألف يؤدي إلى التباس فعل الواحد والاثنين، قال سيبويه ذاكراً لتعليل الخليل: «وقال الخليل: إذا أردت الخفيفة في فعل الاثنين، كان بمنزلته إذا لم ترد الخفيفة في فعل الاثنين، في الوصل والوقف؛ لأنه لا يكون بعد الألف حرف ساكن ليس بمدغم. ولا تحذف الألف، فليتبس فعل الواحد والاثنين. وذلك قولك: (اضربا)، وأنت تريد النون»^(٣٠).

وقال سيبويه معللاً عدم رفع المثنى بالواو - مع أن الرفع من جنس الواو - بالفرار من التباس المثنى بالجمع المذكر السالم في حالة الرفع؛ قال: «واعلم أنك إذا ثنيت الواحد لحقته زيادتان: الأولى منهما حرف المد واللين، وهو حرف الاعراب غير متحرك ولا منون، يكون في

الرفع ألفاً، ولم يكن واواً ليفصل بين التثنية والجمع الذي على حد التثنية»^(٣١). فمعنى قوله: (ليفصل بين التثنية والجمع) هو: (لئلا تلتبس التثنية بالجمع المذكر السالم في حالة الرفع).

سادساً: التعليل بالاستعمال اللغوي

علل سيبويه عدم جزم الأسماء بملازمتها للاعراب والتنوين؛ لأن جزم الأسماء يستلزم حذف التنوين، وحذف الحركة، والعرب في لغتهم لم يجمعوا على الاسم هذين الحذفين؛ قال سيبويه: «وليس في الأسماء جزم، لتمكنها. وللحاق التنوين. فاذا ذهب التنوين لم يجمعوا على الاسم ذهابه وذهاب الحركة»^(٣٢).

وعلل عدم جر الفعل المضارع بأن الجر معاقب للتنوين؛ لأنه داخل في المضاف إليه، والمضاف إليه - كما تعلم - معاقب للتنوين، ومعنى المعاقبة أن مجيء المضاف إليه يستلزم حذف التنوين من المضاف، فالمضاف إليه يأخذ مكان التنوين. فإذا حذفت المضاف إليه عاد التنوين إلى المضاف. فالجر لا يدخل الفعل لأنه يفتقد هذا الاستعمال؛ قال سيبويه: «وليس في الأفعال المضارعة جر، كما أنه ليس في الأسماء جزم؛ لأن المجرور داخل في المضاف إليه معاقب للتنوين، وليس ذلك في هذه الأفعال»^(٣٣).

ومعنى قوله: (وليس ذلك في هذه الأفعال) هو: (وليس ذلك الاستعمال - الذي هو المعاقبة - موجوداً في الأفعال).

والمهم أن كلا التعليلين مستند إلى الاستعمال اللغوي.

سابعاً: التعليل بالاستغناء:

استغناء العرب بلفظ عن لفظ آخر:

قال سيبويه معللاً عدم استعمال العرب الفعل الماضي - (يدع) - أو قلة استعمالهم إياه - عن ذلك باستغنائهم عن (ودع) بالفعل (ترك): قال: «وأما

ينبغي لك أن تفجع بأعرف الأسماء، وأن تحض، ولا تبهم؛ لأن الندبة على البيان وإنما كرهوا ذلك أنه تفاحش عندهم أن يتفجّعوا على غير معروف. فكذاك تفاحش عندهم في المبهمة لابهامه»^(٣٧). فعلة عدم جواز ندبة النكرة واسم الإشارة هي الاختلاف في المعنى. وأن العرب قد بنوا الندبة على البيان والتعيين لذلك لا تجوز ندبة الأسماء التي لا تدل على معيّن.

تاسعاً: التعليل بعلم المخاطب:

قال سيبويه معللاً عدم جواز حذف (بدرهم) من قولك: (بعث داري ذراعاً بدرهم) بعدم علم المخاطب بالمحذوف؛ لأنه قد يفهم من قولك: (بعث داري ذراعاً) أن الدار كلها ذراع؛ قال: «ولا يجوز أن تقول: (بعث داري ذراعاً)، وأنت تريد (بدرهم)، فيرى المخاطب أن الدار كلها ذراع»^(٣٨).

وعلى جواز حذف عبارة: (بدرهم) من قولك، (كان البرّ قفيزين بدرهم) بعلم المخاطب بالمحذوف، لذلك جاز لك أن تقول: (كان البرّ قفيزين)؛ قال سيبويه: «وأما قول الناس: (كان البرّ قفيزين)، و(كان السّمْنُ مَنُويْن)، فإنما استغنوا ههنا عن ذكر الدرهم لما في صدورهم من علمه وبعلم المخاطب؛ لأن المخاطب قد علم ما يعني»^(٣٩).

عاشرأ: التعليل بدلالة الحال:

علل سيبويه حذف الفعل والفاعل من قولك: (مكة وربّ الكعبة) بدلالة الحال؛ قال: «إذا رأيت رجلاً متوجهاً وجهه الحاج، قاصداً في هيئة الحاج، فقلت: (مكة وربّ الكعبة). حيث رَكِنْتُ أنه يريد مكة، كأنك قلت: (يريد مكة والله) أو رأيت رجلاً يسدّ سهماً قبْلَ القرطاس، فقلت: (القرطاس والله)، أي: (يصيبُ القرطاس)، وإذا سمعت وقع السهم في القرطاس قلت: (القرطاس والله)، أي: أصاب القرطاس»^(٤٠). وأكتفي هنا بهذا القدر من أنواع التعليل عند الخليل وسيبويه. وقد أثبت بما لا يقبل الشك

استغناؤهم بالشيء عن الشيء فإنهم يقولون: (يدع)، ولا يقولون: (ودع)، استغنوا عنها بـ (ترك). وأشباه ذلك كثير»^(٣٤).

وقال معللاً عدم استعمال العرب الفعل (فَقَر)، والفعل (شَدَد)، والفعل (حَمَر)، والفعل: (رَفَع). قال: «ولم نسمعهم قالوا: (فَقَر)، كما لم يقولوا في الشديد (شَدَد). استغنوا بـ (اشتد)، و(افتقر)، كما استغنوا بـ (احمار) عن (حَمَر) ولم نسمعهم قالوا: (رَفَع)، وعليه جاء (رفيع). وان لم يتكلموا به، واستغنوا بـ (ارتفع)»^(٣٥).

واضح أن التعليل بالاستغناء إنما هو تعليل بذوق العربي صاحب اللغة. وبحسه اللغوي في تصرفه في لغته.

ثامناً: التعليل بالمعنى

قال سيبويه ناقلاً تعليل الخليل عدم الجزم بـ (إذا): «وسألته عن (إذا)، ما منعهم أن يجازوا بها؟ فقال: الفعل في (إذا) بمنزلة في (إذ) ويبيّن هذا أن (إذا) تجيء وقتاً معلوماً: ألا ترى أنك لو قلت: (آتيك إذا احمرّ البُسْرُ) كان حسناً، ولو قلت: (آتيك ان احمرّ البُسْرُ) كان قبيحاً. فـ (ان) أبدأً مبهمه، وكذلك حروف الجزاء»^(٣٦). فعلة اهمال (إذا) عدم دلالتها على المعنى الذي تدل عليه (ان) الشرطية، فمعناها مخالف لمعنى (ان)؛ لأن معنى (إذا) الدلالة على وقت معين غير مبهم، في حين أن (ان) مبهمه. ولا تدل على شيء معين.

وعلى الخليل عدم جواز ندبة النكرة واسم الإشارة بأن الندبة لا تكون إلا بأعرف الأسماء وبالتعيين والتخصيص في حين أن النكرة واسم الإشارة اسمان مبهمان؛ قال سيبويه ذاكراً لتعليل الخليل: «هذا باب ما لا يجوز أن يندب: وذلك قولك: (وارجلاه ويا رجلاه). وزعم الخليل - رحمه الله - ويونس أنه قبيح، وأنه لا يقال. وقال الخليل - رحمه الله - إنما قبح لأنك أبهمت، ألا ترى أنك لو قلت: (واهداه)، كان قبيحاً؛ لأنك إذا ندبت فإنما

التعليل عند الخليل وسيبويه حقيقته والجديد فيه

- ٢٧- البيت في ديوانه ص ١٠٧ برواية: (...) ولا سابقاً شيئاً إذا كان جائياً).
- ٢٨- الكتاب. لسبويه ج ٣ ص ١٠٠-١٠١.
- ٢٩- سورة المنافقين. الآية ١٠.
- ٣٠- الكتاب. لسبويه ج ٣ ص ٥٢٥.
- ٣١- المصدر السابق ج ١ ص ١٧.
- ٣٢- المصدر السابق ج ١ ص ١٤.
- ٣٣- المصدر السابق ج ١ ص ١٤.
- ٣٤- المصدر السابق ج ١ ص ٢٥.
- ٣٥- المصدر السابق ج ٣ ص ٣٣.
- ٣٦- المصدر السابق ج ٣ ص ٦٠.
- ٣٧- المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٧.
- ٣٨- المصدر السابق ج ١ ص ٣٩٣.
- ٣٩- المصدر السابق ج ١ ص ٣٩٣.
- ٤٠- المصدر السابق ج ١ ص ٢٥٧.

المصادر

- ١- الايضاح في علل النحو. لابي القاسم الزجاجي، تحقيق الدكتور مازن المبارك. دار النفائس - بيروت سنة ١٩٧٣.
- ٢- الخصائص. لابن جني. تحقيق محمد علي النجار. دار الكتاب العربي - بيروت. سنة ١٩٥٢.
- ٣- ديوان زهير بن أبي سلمى المزني - دار بيروت - سنة ١٩٨٦.
- ٤- الكامل في اللغة والأدب. لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد. تحقيق حنا الفاخوري دار الجليل. بيروت. سنة ١٩٩٧.
- ٥- الكتاب. لسبويه، تحقيق عبد السلام هارون. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. سنة ١٩٧٧.
- ٦- لسان العرب. لابن منظور. دار احياء التراث العربي - بيروت. سنة ١٩٩٩.

* * *

أن التعليل عند الخليل وسيبويه يتسم باللطافة والأصالة. وعدم التأثير بكل ما هو غريب عن الذوق اللغوي، وعدم الخروج من أجواء الدرس اللغوي وطبيعة أرباب اللغة.

الهوامش

- ١- الايضاح في علل النحو. لأبي القاسم الزجاجي ص ٦٦. دار النفائس. بيروت. ١٩٧٣.
- ٢- الكامل في الأدب. لأبي العباس المبرد ج ٢ ص ١٠٤. دار الجليل. بيروت ١٩٩٧.
- ٣- الخصائص. لابن جني ج ١ ص ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٩. دار الكتاب العربي. بيروت ١٩٥٢.
- ٤- الكتاب. لسبويه ج ٣ ص ٣٠٢. القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧.
- ٥- الخصائص. لابن جني ج ١ ص ٤٨.
- ٦- المصدر السابق ج ١ ص ٥١.
- ٧- يعني الفعل الماضي.
- ٨- أي: فاسم الفاعل.
- ٩- أي: غير معنى المشابهة.
- ١٠- أي: الأسماء التي لا تشبه الفعل. فلا تعمل.
- ١١- الكتاب. لسبويه ج ١ ص ١٧١-١٧٢.
- ١٢- الخصائص. لابن جني ج ١ ص ٣٠٤.
- ١٣- سورة يوسف. الآية ٣١.
- ١٤- سورة المجادلة. الآية ٢.
- ١٥- الكتاب. لسبويه ج ١ ص ٥٧.
- ١٦- المصدر السابق ج ١ ص ١٤٧.
- ١٧- المصدر السابق ج ١ ص ٤٣٦.
- ١٨- المصدر السابق ج ٣ ص ٤٧٧-٤٧٨.
- ١٩- معنى (يطوهم الطريق): أن يبوهم على طريق المارة، فن جاز في الطريق رأيهم.
- ٢٠- المصدر السابق ج ١ ص ٣١١.
- ٢١- المصدر السابق ج ٤ ص ١١٣-١١٤.
- ٢٢- المصدر السابق ج ١ ص ٤٢٥.
- ٢٣- المصدر السابق ج ٣ ص ٣٣٩.
- ٢٤- المصدر السابق ج ٣ ص ٥٢٩.
- ٢٥- المصدر السابق ج ١ ص ٢٨١.
- ٢٦- سورة المنافقين. الآية ١٠.